الباب السادس

إثباتُ الرسَالة

من العقائد الهامة في الدين، بعد الإيمان بالله، عقيدة الإيمان بالرسالة، أو الوحي والإلهام. ومعناها: أن الله تعالى يُنْزلُ كلامَه على إنسان يختاره من بين الناس، ليخبر الناسَ بما يرضي الله تعالى..

وحين عجزنا عن رؤية أي «خط اتصال ساخن»، بين الله سبحانه وبين الرسول، أنكرناه. ولكنا اليوم نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة.

إن هناك وقائع كثيرة جداً تجري من حولنا في كل لحظة، ونحن نعجز عن إدراكها، أو سماعها، أو الإحساس بها بوساطة أجهزتنا العصبية، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسّر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها. وهذه الأجهزة تستطيع أن تدلّ على صوت ذباب طائر على بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك!.

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد إنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء!!.

لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك كثير جداً من الأحداث التي لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية.

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة. وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضاً. ومما لاشك فيه أن جهاز سماع الإنسان محدود جداً، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف؛ فالكلب، مثلاً، يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مر من الطريق، ومن ثم استُغلت الكلاب في البحث عن

الجرائم والمجرمين . . فالقفل الذي كسره اللص يشمه الكلب المدرب ، ثم ينطلقُ مقتفياً أثر الرائحة المعينة التي وجدها عند القفل المكسور ، وفجأة نراه يمسك باللصَ من بين الألوف .

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتاً تخرج عن نطاق أسماعنا ، ولقد أثبتت البحوث في هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة (الإشراق) Telepathy . فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) ، أو (العثة) ، وهي حشرة مجنّحة ـ على نافذة مفتوحة ، فستحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جداً ، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضاً بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى «الجندب» ، يحك رجليه وجناحيه ويصوّت بطريق غير عادية ، ويُسْمَعُ على مبعدة نصف ميل ، وهو يحرّك في هذه العملية ستمائة طن من الهواء ، ليدعو زوجه ، وهذه الزوج ترسل أيضاً ، وهي ساكنة بلا حراك ، جواباً لا نعرفه ، وإنما يعرفه الجندب الذكر ، ثم يلحق بها أينما كانت .

وقد أثبتت البحوث أيضاً أن «أبو النطيط» العادي Grasshopper لديه قدرة خارقة على السماع ، حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التي تحدث في نصف القطر من ذرة الهيدروجين !

وهناك أمثلة أخرى كثيرة ، تؤكد إمكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوي الحواس الخاصة .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان أنه يسمع صوتاً من لدن ربه ، لا يدركه عامة الناس (؟) مادام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الإنسان ، ولكن تسجلها الآلات؟. وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى؟.

ما هو جانب التعجب والاستبعاد؟.

إن الله تعالى ـ لحكمة يعلمها ـ يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية إلى الإنسان المختار للرسالة ، بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها .

فليس هناك من تعارُض، في الحقيقة، بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التي نُشاهدها ونجرّبها في أمكنة وطرق مختلفة، فالوحي إمكان، وجدناه في شكل الواقع، بعد التجربة.

وقد تبين أن تجارب الإشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات، وإنما توجد في الإنسان «بالقوة»، يقول الدكتور إليكسيس كيريل[1]: «إن حدود الفرد في إطار الزمان والمكان هي مجرد افتراض[2]».

فيستطيع عامل الإشراق أن يجعلك تنام، وتضحك، أو تبكي، كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر، لست على علم بها. إنها عملية لا تستعمل فيها أية وسائل، ولا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه. كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربه؟. إننا، بعد الإيمان بالله، والاطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما في ذلك الإشراق، لا نجد أساساً لإنكار الوحي والإلهام.

❖ ❖ ❖

وقد حدث سنة 1950 أن المسؤولين في «بافاريا» رفعوا قضية ضد أحد النمسويين، واسمه (فرنتر ستروبيل)، بتهمة التدخل في برامج الإذاعة عن طريق الإشراق.

وكان فرنتر ستروبيل يستعرض أعماله في فندق ريجنا، بميونيخ، عندما ناول أوراق لعب الكوتشينه، إلى أحد المتفرجين، وطلب إليه اختيار ورقة ما، وادّعى أنه سوف ينقل اسم تلك الورقة واسم الفندق مع ترتيبهما، كما هما في ذهن المتفرج، إلى المذيع الذي كان يقرأ الأخبار من إذاعة ميونيخ المحلية، وذلك دون أن يعرف المذيع نفسه شيئاً من هذا!!.

وبعد ثوان سمع الناسُ صوتَ مذيع مرتعش، وهو يقول: «فندق ريجنا ـ بنت البستوني». وكان الترتيب واسم الورقة صحيحين، كما أراد المتفرج.

---

(1) Man the Unknown, p. 244.

(2) أي لا نهاية لهذه الحدود من حيث الإمكان. (المعرب).

وكان الارتعاش والرهبة واضحين في صوت المذيع، ولكنه واصل قراءة الأخبار. واستغرب كثيرون من المستمعين من سكان ميونيخ، واتصل مئات منهم تليفونياً بالإذاعة يستفسرون عن السر الغامض. . فكان من الصعب عليهم إدراك علاقة الأخبار «بفندق ريجنا ـ بنت البستوني»: وحضر طبيب الإذاعة للكشف على المذيع، فوجده في حالة اضطراب خطيرة، وأدلى المذيع ببيانه قائلاً: «إنني شعرت بصداع شديد في رأسي، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك!».

❖ ❖ ❖

وقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الإشراق، ومنها أن أمواجاً تصدر من المخ وتنتشر في العالم أجمع بسرعة فائقة، ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية Brain Wave Theory[1].

ونحن نقول: إنه لما كان الإنسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها إلى إنسان آخر، على بعد غير عادي، وبدون استعمال أي واسطة مادية ظاهرية، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الإله وعباده؟. إن هذا المظهر من كفاءة قوى الإنسان ـ وأمثلته كثيرة لا تحصى ـ ليس إلا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم الألفاظ والمعاني، التي تربط العبد بالإله، عندما يُرسل رسالاته.

إن الإشراق أمر معروف لدى الناس، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الإشراقي العظيم بين الإله والعباد، والذي يكون في أكمل صورهِ حين يبلغ درجة «الوحي»، وهذا الوحي لا يعدو أن يكون «إشراقاً كونياً»، من نوع الإشراقات التي عهدناها في حياتنا على مستويات محدودة.

❖ ❖ ❖

---

(1) Religion, Philosophy and Psychical Reseaech, C.D. Broad, pp. 47 - 48.
Man The Unknown, pp. 244 - 49.

أولاً: ضرورة الرسالة:

وينبغي - بعد وضوح إمكان الوحي والإلهام - أن نبحث إذا ما كان «ضرورياً» أن يخاطب الله إنساناً، ليبلغ كلامه إلى الناس؟.

إن أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذي يخبر عنه الرسول من أهم الأمور التي تتعلق بحياة الإنسان ومصيره، والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى تلك الحقائق بجهوده الشخصية، إنه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون، كي يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها، وحقائق الشر والخير، وكيفية صوغ الإنسان من أجل الإنسانية، وتنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع الإنسانية أن تسير قُدماً في طريق الخير والرفاهية. . ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا. فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبترول، وتعرفنا على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير، ولكننا عاجزون عن كشف «علم الإنسان»، رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقرية تواصل البحث عن هذا العلم، ولم تستطع، حتى الآن، تحديد مبادئه وأسسه. إن هذا هو أكبر دليل على أن الإنسان يحتاج إلى هدى الله، من أجل أن يعرف نفسه!.

❖ ❖ ❖

ومن المسلَّم عند الإنسان الجديد أنه لم يفلح بعد في كشف لغز الحياة، ولكنه، على كل حال، يأمل في أن يساعده القدر يوماً لرفع القناع عن هذا السر المعقد، ولا ريب أن عجز مجتمع العلم والصناعة عن إشباع الحاجات النفسية للإنسان يؤكد الفكرة التي تقول: «إننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية، على حين تركنا العلوم الإنسانية في مراحلها البدائية»، أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف إلى العمل في هذا المجال، مجال (العلوم الإنسانية) فهم كذلك لم يستطيعوا كشف شيء ما، بل لجوا في ضلالهم يعمهون، يقول الدكتور إلكسيس كيريل (الحائز على جائزة نوبل للعلوم):

«إن مبادئ الثورة الفرنسية، وأفكار ماركس، ولينين، لا تنطبق إلا على الإنسان العقلي المثالي. ومن الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات

الإنسانية لم تكشف بعد. أما الاجتماع والاقتصاد وما أشبههما، فهي علوم افتراضية محضة، بدون أدلة يمكن إثباتها بها[1]».

ولا شك أن علومنا الجديدة قد فتحت مجالات أمام الإنسان، ولكنها في الوقت نفسهِ جعلت المسألة أكثر تعقيداً، ولم تساعد في حل الأزمة في أية مرحلة.

ويقول الأستاذ ج. و. ن. سوليفان:

«إن الكون الذي كشفه العلم الحديث هو أكثر غموضاً وإبهاماً من التاريخ الفكري بأكمله، ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أي عصر مضى، ولكن هذه المعلومات كلها غير مُقْنعة، فنحن نواجه اليوم الإبهام والمتناقضات في كل ناحية[2]».

هذه الكارثة المؤسفة التي نقف أمامها، بعد بحث طويل في العلوم المادية عن سر الحياة، تدلنا على أن إدراك سر الحياة لن يتاح للإنسان[3].

إن أحوالنا تحتم علينا معرفة سر الحياة، إذ إننا لا نستطيع مواصلة الحياة في أكمل صورها دون معرفته؛ ولذلك كان خيرَ ما نتمنىَ بقلوبنا أن ندركه، ولا يرضى أسمى جزء من شخصيتنا، وهو العقل، أن يطمئن بدونه. فحياتنا مبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة.

سر الحياة هو ضرورتنا الكبرى، هذا من ناحية، ولكننا، من ناحية أخرى، لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها..

هذه الحالة وحدها تكفي لتبين حاجتنا الشديدة إلى «الوحي»، فأهمية سر الحياة، ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الإنسان، يدل على أنه لا بد أن تأتي المعرفة من الخارج أيضاً، كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان، ولكنهما هُيِّئا من الخارج[4].

---

(1) Man the Unknown, p. 37.

(2) Limitations of Science, p. 1.

(3) انظر للتفصيل كتاب الدكتور كيريل، ص 19 ـ 16.

(4) سوف نبحث هذه المسألة بتوضيح أكثر، في الفصول القادمة.

إن مهمتنا، بعد التسليم بإمكان الوحي وضرورته، هي أن نبحث عن الإنسان الذي يدعي أنه نبي.. هل هو صاحب الوحي في الحقيقة؟.. لقد نصت العقيدة الدينية على مجيء عدد كبير من الأنبياء، ولكننا سوف نبحث في هذا الباب عن نبوة رسول الإسلام: سيدنا محمد بن عبد الله (ﷺ)؛ فإن نبوة سائر الأنبياء من قبله تثبت تلقائياً لو ثبتت نبوته، لكونه آخر الأنبياء، ولأنه يصدقهم ولا ينكرهم، ولأن نجاة البشرية أو هلاكها في معركة الحياة رهن بإيمانها بهذا النبي، أو تكذيبها إياه.

❖ ❖ ❖

لقد ولد طفل بمكة صبيحة يوم 29 أغسطس من عام 570 م، وعندما بلغ الأربعين من عمره، أعلن أن الله تعالى أرسله خاتماً للنبيين، وكلفه بإبلاغ رسالته إلى جميع فئات الجنس البشري، وأن من اتبعه نجا في الحياة الآخرة، وأنَّ من كذبه فهو في خسران مبين.

إن أصداء هذا الصوت تمر فوق رؤوسنا اليوم بأشد قوتها، وهو ليس بصوت عادي تتجاهله الآذان.. فهو أكبر نداء في تاريخنا يدعونا إلى تفكير دقيق، وعلينا أن ندرسه بدقة، فإما قبلناه وهو صادق، وإما رفضناه لو وجدناه كاذباً... وهيهات.

❖ ❖ ❖

ثانياً: مقياس الرسالة:

كل فكر يمر بثلاث مراحل، حتى يصبح حقيقة علمية:

المرحلة الأولى: الفرض Hypothesis

المرحلة الثانية: الملاحظة Observation

المرحلة الثالثة: التحقق Verification

والمرحلة الأولى من الحقائق هي أن نفترضها، ثم نشاهدها وندرسها، لنتبين صدقها أو كذبها، فإن وجدناها صحيحة، في ضوء الدراسة، قبلناها؛ لتصبح حقيقة علمية، وقد ينقلب هذا الوضع، فإننا في بعض الأحيان نشاهد أشياء نتوصل بها إلى نظرية، ثم نبدأ البحث في ضوئها.

وبناء على هذا الأساس فإن دعوى النبوَّة (فرض). وعلينا أن نفتش إذا ما كانت (الملاحظات) تؤيد هذا الفرض؟. فإذا أيدته المشاهدات أصبح (حقيقة) مصدَّقة، يلزمنا قبولها..

ولكن ما الملاحظات التي نحتاج إليها لاختبار هذا الفرض؟.

وما المظاهر الخارجية التي تؤيد كون محمد (ﷺ) نبياً حقاً؟.

وما الخصائص والميزات التي اجتمعت في الرسول، ولا نجد لها تفسيراً إلا إذا قلنا: إنه كان نبياً؟.

في رأيي أنه لا بد من مقياسَيْن لاختبار الأنبياء:

أولاً: أن يكون رجلاً مثالياً بصورة غير عادية، فإن الذي يُصطفى ليكون كليم الله، وليكشف للإنسان برنامج الحياة وسرها، لا بد أن يكون أسمى شخصية في النوع الإنساني، كما لا بد أن يكون حاملاً مُثُلَ الحياة العليا. فإذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهي أكبر دليل على ما يقول؛ إذ لو كانت دعواه باطلة لما كان ممكناً أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى في حياته الذاتية، حتى تسمو به فوق سائر الإنسانية، خلقاً وشمائل.

❖ ❖ ❖

ثانياً: أن يكون كلامه ورسالته مملوءيْن بجوانب يستحيل حصولها للإنسان العادي، ولا تُؤَمَّلُ إلا ممن ظفر بمعرفة رب الكون، بحيث لا يمكن للعامة محاكاة ما جاء به النبي من وحي الله.

إننا سوف نبحث عن الرسول في ضوء هذين المقياسين.

❖ ❖ ❖

لقد شهد التاريخ بكل قطعية أن محمداً ﷺ كان يتمتع بسيرة غير عادية، ومن الممكن للمتعصبين إنكار أية حقيقة، مهما كانت واضحة، كما أن من الممكن للمنكرين ادعاء أي شيء في سبيل الاستغلال، إذا كانوا غير راضين بالنتيجة، مهما

كانت صادقة وبدهية ! وحسبنا أن نذكر على ذلك موقفاً من حياتنا الحديثة ! فقد شاهدنا منذ سنين قليلة مثالاً ساخراً لهذا المبدأ، عندما هاجمت الصين الشعبية حدود الهند الدولية، وأخذت الصين، إزاء احتجاج الهند، تتهم الهند نفسها بالعدوان!.

وفي الخطاب الذي أرسله رئيس وزراء الصين إلى الهند، والذي أذيع نصه بدلهي في يناير عام 1960م، ادعت الصين أن لها حقاً في أراضٍ هندية تبلغ مساحتها 220.000 كم مربعاً ! ! ويقول رئيس وزراء الصين: إن القوات الصينية لم تتقدم إلاّ لتدفع بالقوات الهندية المحتلة إلى الوراء!!.

أليس هذا منطق التعصب والاستغلال!!.

أما الذي لا يشكو من داء التعصب، ويهيئ عقله لمطالعة الحقائق بقلب مفتوح واع، فإنه سيسلم بعد دراسته بأن حياة محمد ﷺ كانت أرقى وأحلى حياة شهدها البشر.

❖ ❖ ❖

لقد أخبر محمّد بن عبد الله بالنبوة، وهو في الأربعين من عمره، وكان قد اشتهر قبل هذا بدور أخلاقي ممتاز، حتى لقّبه الناس بـ «الصادق الأمين»، وكانت قريش قد أجمعت على أنه يستحيل أن يكذب، أو يخون الأمانة.

ومن الأحداث التي جرت قبل إعلانه النبوة بخمس سنين أن أهل مكة أرادوا بناء الكعبة من جديد، وكانت قريش هي صاحبة الأمر، فاختلفت فيمن سيضع الحجر الأسود في مكانه، واستمر الخلاف أربعة أيام أو خمسة، وأوشكت السيوف أن تبرز، وكاد القوم أن يتناحروا، ثم اتفقوا على أن يكون الفيصل في هذه القضية أول من يدخل البيت الحرام صباح غد، وفي اليوم التالي شاهدوا أن الإنسان الأول الذي دخل البيت كان محمداً، فنادوه قائلين: «هذا الأمين، رضينا[1]» .

إننا لا نعرف شخصية في التاريخ الإنساني تمتعت بهذا الإجلال والتكريم والتقدير، وبهذه السيرة غير العادية، ثم أصبحت موضوع نزاع بعد مضي أربعين سنة من عمرها.

---

(1) صحيح البخاري، باب ما ذكر في الحجر الأسود.

وعندما نزل عليه الوحي لأول مرة، وهو في غار حراء، اعتبره حادثاً غريباً، لم يعهده من قبل، فرجع إلى بيته يرجف فؤاده وقص كل ما حدث على زوجه: خديجة، التي كانت أكبر منه سناً، فقالت: «يا أبا القاسم، والله، لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر».

وكان أبو طالب عم النبي، قد أبى أن يؤمن، ولكنه حين علم أن ابنه «علياً» أسلم، قال له: أي بُنَيّ: ما هذا الدين الذي أنت عليه؟..

فقال: يا أبت، آمنت بالله، وبرسول الله، صليت معه واتبعته، فقال أبو طالب: «أما إنه لم يَدْعُكَ إلا إلى خير، فالزمْه[1]».

وعندما جمع الناسَ لأول مرة بعد النبوة في رحاب «جبل الصفا»، سألهم: «يا بطون قريش! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟.» فعلت الأصوات من كل الحناجر، وهي تقول: «نعم، ما جربّنا عليك كذبا!».

إن هذا السجل التاريخي الممتاز لحياة الرسول قبل إعلان النبوة، ليس له مثيل في العالم، ولم يسبق أن أحرز مثلهَ أي شاعر، أو فيلسوف، أو مفكر، أو كاتب!!.

وعندما أعلن محمد (ﷺ) النبوة، لم يكن صدقه موضع شك، أو بحث، مطلقاً لدى أهل مكة؛ فإنهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة، ولذلك لم يَرْمه أحد بتهمة الكذب أو الاحتيال، بل ذهبوا يدَّعُون أنه فقد وعيه، أو أنه شاعر أو ساحَر، أو أن الجن استولت على أعصابه، وما إلى ذلك من الدعاوى التي تحفل بذكرها الكتب التاريخية؛ ولكن هذه الكتب لا تشير إلى أية محاولة جرؤ صاحبها فيها على النيل من أمانته وصدقه.

---

(1) Ideal Prophet, p. 58. ، وانظر سيرة ابن هشام 1/ 265.

بل يسجل التاريخ أنه: «ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته[1]».

وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة، صمم بعض شبان قريش على قتله، وحاصروا بيته لاغتياله؛ وفي تلك الساعة الخطرة الحرجة قرّر الهجرة إلى يثرب، ولكنه أوصى ابن عمه (علياً) أن يرد جميع الأمانات إلى أصحابها في الصباح!.

وهذا النضر بن الحارث، وقد كان من أكبر المعارضين للنبي، وكان يُعَدُّ من الخبراء المحنكين بمكة ـ وقف يوماً، فألقى خطبة في جمع من قريش، وقال:

«يا معشر قريش، إنه، والله، قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن، لا والله، ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر، لا والله، ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه. وقلتم: مجنون، لا والله، ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش؛ فانظروا في شأنكم، فإنه، والله، لقد نزل بكم أمر عظيم».

«وكان هذا النضر من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة[2]».

وكان أبو لهب عم النبي من ألد أعدائه، وقال له ذات مرة: «يا محمد إنني لا أقول: إنك كاذب، ولكن الأمر الذي تقوم بتبليغه باطل[3]».

إن نبوة محمد ﷺ كانت عامة لسائر أهل الأرض، غير مقصورة على الجزيرة العربية، ولذلك أرسل كتابات إلى ملوك البلاد القريبة، وقد تلقى إمبراطور الروم

---

(1) سيرة ابن هشام ج 2، ص 98.

(2) المرجع السابق 1 / 319.

(3) الترمذي.

«هرقل» كتاباً من الرسول، يدعوه إلى اعتناق الدين الجديد، فأمر رجاله بإحضار رجل من قوم الرسول، في ديوانه[1]. وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية في بلاد الشام، فجيء بهم إلى ديوان القيصر، وسألهم هرقل عمن كان أقربهم نسباً بالرسول، فأجاب أبو سفيان: «أنا أقربهم نسباً». ثم جرى حديث تاريخي هام بين هرقل وأبي سفيان، نقتبس هنا منه شيئاً:

«هرقل: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

أبو سفيان: لا.

هرقل: هل يغدر؟.

أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة، لا ندري ما هو فاعل فيها.

فقال هرقل: قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله.

وعندما دار هذا الحديث لم يكن أبو سفيان قد آمن بالرسول بعد، بل كان من خصومه، الذين ألبوا عليه العرب، وشنوا ضده الحروب، وقال وهو يروي هذا الحادث: «والله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه[2]».

إن التاريخ على طوله لم يشهد رجلاً أدلى خصومه بآراء مثالية عن سيرته و حياته، مثلما أدلى به خصوم رسول الإسلام.

إن هذا الواقع، هو الآخر، دليل، في ذاته، على حقيقة دعوة النبي العربي.

وسوف أنقل هنا ما قاله الدكتور ليتز عن الرسول:

«إنني لأجرؤ، بكل أدب، أن أقول: إن الله الذي هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها، لو كان يوحي إلى عباده، فدين محمد هو دين الوحي، ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوي ووسائل التمييز بين الخير والشر ودفع الباطل هي الشاهدة على الإلهام، فرسالة محمد هي هذا الإلهام[3]».

---

(1) كان قيصر الروم هرقل، حينئذ، في بيت المقدس، يشكر الله لغلبته على الفرس، وقد تلقى هذا الكتاب هناك.

(2) صحيح البخاري: كيف كان بدء الوحي.

(3) Life of Mohammad. By Abul Fadl.

لقد عانى محمد (ﷺ)، من صنوف الأذى، وضروب العنت والاضطهاد عندما بدأ دعوته؛ وحاربه قومه أشد الحرب وأقساها، فوضعوا في طريق مروره الأشواك، وصبوا على جسمه الطاهر أكواماً من النجاسة.. بل ووجدناه ذات مرة بينما كان يؤدي صلاته، وإذا (عقبة بن أبي معيط) يلبه بردائه بشدة حتى وقع النبي على الأرض...

ولكن هذه الاستفزازات لم تؤثر في مهمة النبي، فاتّبعوا معه أسلوباً آخر، وذلك حين قاطعوه هو وعشيرته من بني هاشم، وأجبروهم على أن يعتزلوا الناسَ، فلجؤوا إلى شعْب بني هاشم، ومنعوا عنهم الطعام، وحرموا التعامل معهم، ومضى على هذه المقاطَعةَ والحصار التاريخي ثلاث سنين، وهم يأكلون أوراق شجر (الطلح) الجبلية المرة، لسد حاجة البطن إلى الطعام، ويروي أحد الصحابة في هذا الحصار أنه حصل مرة على قطعة جافة من الجلد، فغسله بالماء ووضعه على النار، ثم بلّله بالماء ثانية وأكله.

وبعد الخروج من هذا الحصار ذهب النبي ﷺ إلى أهل الطائف، وكانت تبعد أربعين ميلاً عن مكة، وكان يقطنها الأعيان والأثرياء من ثقيف، واستخدم هؤلاء لغة بالغة السوء مع الرسول. وذهب أحدهم يقول متحدياً ـ وهو يمزق (يمزق) ثياب الكعبة ـ : «إن كان الله أرسلك»، وقال الآخر: «أما وجد الله أحداً يرسله غيرك» وقال الثالث: «والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله، كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك».

ولم يكتف هؤلاء بهذا الاستهزاء، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، يرمونه بالأحجار، إلى أن سقط على صخرة مثخناً بالجراح، وحين جلس ليستريح من الجراح والعنت، رموه حتى نهض مبتعداً عنهم، وهم يتابعونه بالسب والإيذاء والتصفيق.. ولم يزل هذا المشهد حتى أقبل المساء، وأوى الرسول إلى حائط لعتبة بن ربيعة، فجلس في ظل كرمة، وهو جريح ملطخ بالدماء. وهذا هو الواقع الذي كان الرسول يذكره

للسيدة عائشة في قوله: «لقد لقيت من قومك ما لقيت؛ وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[1]».

وعلى الرغم من هذا الأذى الشديد، فقد ظل الرسول يدعو إلى الحق، حتى اجتمعت قريش على أنه لا سبيل إلى التخلّص منه إلا بالقتل. وبناء على مؤامرة دبروها، أحاط عدد من رؤسائهم وشبيبتهم ببيت الرسول، وفي أيديهم سيوفهم المسلولة، استعداداً لاغتيال الرسول ﷺ، عندما يخرج من بيته لتأدية صلاة الصبح، ولكنه بإذن من الله، خرج من البيت دون أن يصاب بأذى، وهاجر إلى المدينة المنورة.

ثم أعلنت قريش قتالاً منظماً ضد النبي وأعوانه، وجروه إلى الحرب، وورطوه في هذه الحروب زهاء عشر سنين، وقد سقطت في معاركها أسنانه الكريمة، وكسرت رباعيته، كما استشهد عدد كبير من صحابته، وعانى مع أصحابه كل ما تعانيه الشعوب الضعيفة بعد إعلان الحرب عليها.

❖ ❖ ❖

وهكذا دارت رحى التاريخ خلال ثلاثة وعشرين عاماً من الكفاح، وقبيل نهاية رسالته بعامين فتحت مكة، ويومها وقف أمامه ألد خصومه، لا يجدون نصيراً ولا معيناً.. فهم يعرفون كيف يعامل المنتصر المغلوبين، ولكن الذي لقبه ربه بأنه «رحمة للعالمين» سألهم:

- «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟.»
- فقالوا: «خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم».
- فأعلنها الرسول ﷺ:

---

(1) نص هذا الحديث: قالت عائشة: يارسول الله، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟... فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب. فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال.. الخ - المراجع.

«اذهبوا فأنتم الطلقاء !»

ذلكم، ولا شك، أعظم مثل للرحمة والعفو، وهو معجزة من معجزات التاريخ الإنساني. ولو كان هذا الحدث من أحداث ما قبل التاريخ، أو لم يكن مسلّماً به تاريخياً، لكذبه المكذبون الذين في قلوبهم زيغ، وقالوا: إنها أسطورة من أساطير التاريخ، فلم يخلق إنسان بهذه الشيم!.

وما أصدق ما قاله البروفيسور بوسورث سميث:

«عندما ألقي نظرة إجمالية أستعرض فيها صفاته وبطولاته، ما كان منها في بدء نبوته، وما حدث منها فيما بعد، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روحَ الحياة، وكم من البطولات المعجزة أحدثوا ـ أجده أقدس الناس، وأعلاهم مرتبة، حتى إن الإنسانية لم تعرف له مثيلاً[1]».

إن المثل الأعلى الذي ضربه النبي في حياته الكاملة، من الأخلاق العالية، والزهد في الأموال والملذات، شيء لا مثيل له في التاريخ.

لقد كان تاجراً ناجحاً في مكة، وكانت زوجه السيدة خديجة من أثرى نساء العرب، ولكن كل تجارته، وثراء زوجته، ذهبا في سبيل الدعوة، ثم ابتليَ ببلاء شديد، حتى إنه قال مرة:

«لقد أُخفتُ في الله، وما يُخاف أحد (أي مثل ما أخفت)، ولقد أوذيت في الله، وما يؤذى أحدَ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين ليلة ويوم، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال[2]».

❖ ❖ ❖

وما عانى النبي كل هذا إلا لأجل دعوته، لقد كان من الممكن أن يعيش حياة أخرى، تختلف كل الاختلاف عن الحياة البائسة التي عاشها في سبيل رسالته؛ ولقد

---

(1) Mohammad & Mohammadanism, p. 340.

(2) الترمذي عن أنس رضي الله عنه.

عرضت عليه، حين كان بمكة، عروض مغرية تكفل له العيش الرخيَّ، والمجد السنيَّ، فأوفد إليه رؤساء قريش «عتبة بن ربيعة»، الذي جاء ليقول له:

«يا بن أخي، إنك منا، حيث قد علمت من السّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقتَ به جماعتهم؛ فاسمع مني، أعرض عليك أموراً، تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال له: قل يا أبا الوليد أسمعْ، فقال: يا بن أخي: إن كنت إنما تريد، بما جئت به من هذا الأمر، مالاً، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً؛ وإن كنت إنما تريد به شرفاً، سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك؛ وإن كنت تريد به ملكاً، ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رَئيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه».

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟. قال: نعم، قال:

فاستمع مني، فقال: أفعل. . فقرأ عليه الآيات الأولى من سورة (فصلت)، فلما وصل إلى قوله تعالى: «مثل صاعقة عاد وثمود» أمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم أن يكف[1]».

❖ ❖ ❖

وفي المدينة المنورة، كان النبي ﷺ رئيساً لدولة المسلمين، وكان يتمتع بمساعدين مثاليين، يبذلون حياتهم لأجله، ولم يُعرفْ لهم نظراءُ على مدى التاريخ. ولكن الوقائع التاريخية أثبتت أنه ـ حتى في آخر أيام حياته، حين أظلت رايته الجزيرة العربية كلها ـ بقي رجلاً عادياً، غير ملتفت إلى شهوات الدنيا ومغرياتها، حتى لحق بالرفيق الأعلى.

وقد روى سيدنا عمر بن الخطاب أنه دخل حجرة النبي ﷺ: «فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمل بجنبه، متكئاً على وسادة

---

(1) سيرة ابن هشام 1/ 313ـ314.

حشوها ليف. . قلتُ: يا رسول الله ادع الله، فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم قد وسع عليهم، وهم لا يعبدون الله. فقال: أو في هذا أنت، يا بن الخطاب؟. أولئك عجلت لهم طياتهم في الحياة الدنيا؛ وفي رواية: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة[1]».

ومما تحكي السيدة عائشة أنه «كان يمر الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما توقد في أبيات الرسول ﷺ نار؛ فسألها عروة بن الزبير: فما كانت معيشتكم، يا خالة؟. قالت: الأسودان: التمر والماء. وقالت: وكان لنا جيران من الأنصار، لهم ربائب يسقوننا من لبنها، جزاهم الله خيراً.». وقد جاء في حديث آخر: أنها ذكرت «أن آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بُرٍّ، حتى مضى النبي ﷺ، لسبيله[2]».

❖ ❖ ❖

لقد عاش النبي هذه الحياة القاسية، رغم كونه قادراً، كل القدرة، على أن يعيش حياة النعيم والترف. وعندما انتقل إلى رحمة الله لم يورث أهله شيئاً، لا دراهم ولا دنانير، ولا غنماً ولا إبلاً، حتى إنه لم يكتب أية وصية، بل إن النبي العظيم، الذي كان على معرفة تامة بأن حدود دولته الإسلامية سوف تمتد عابرة إفريقية وآسيا، حتى تصل إلى قلب أوربا ـ قال: «نحن معاشر الأنبياء، لا نورث؛ ما تركنا صدقة».

❖ ❖ ❖

إن هذه الوقائع التي أوردناها، من الإيثار، والإخلاص، وسمو الأخلاق، ليست حوادث استثنائية في حياة الرسول، وإنما هي حياته بأكملها، بل هي بالحريٍّ، صورة مصغرة وموجزة عن الوقائع التي كانت تحدث في حياته المثالية. لقد ارتفع بالإنسانية إلى أسمى قمة تحلم بها، حتى إنه لو لم يوجد، لاضطر المؤرخون إلى القول: بأنه لم يوجد إنسان من هذا الطراز، ولن يوجد في التاريخ.

---

(1) متفق عليه.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد 1 / 400 وما بعدها.

فليس غريباً، مطلقاً، أن يقال: إنه كان نبيّ الله، ولكن الغريب أن ينكره أحد منا عناداً وغروراً.

ونحن عندما نسلّم بدعواه يمكننا أن نفسّر سر حياته المعجزة.

أما إذا أنكرنا نبوته، فسنفقد أي أساس لتفسير منبع أوصافه العجيبة، التي لم نجد لها مثيلاً في التاريخ.. وقد اعترف البروفيسور «بوسورث سميث» بهذه الحقائق، حتى إنه ليدعو البشرية كلها إلى الإيمان برسالة النبي: «لقد ادعى محمد لنفسه في آخر حياته نفس ما ادعاه في بداية رسالته.

وإني لأجدني مدفوعاً إلى الاعتقاد بأن كلاً من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران، يوماً ما، إلى التسليم بأنه كان نبياً... نبياً صادقاً من عند الله[1]».

❖ ❖ ❖

أما الناحية الأخرى في قضية إثبات الرسالة المحمدية، فهي ذلك الكتاب الذي جاء به صاحب الرسالة، مدعياً أنه منزل من عند الله.

وهذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على أنه كلام غير إنساني، وأنه من عند الله. ولما كان البحث في هذه الناحية ذا طبيعة خطيرة ـ نظراً لأهميته ـ فقد قدرنا أن ندرسه في باب مستقل..

❖ ❖ ❖

(1) Mohammad & Mohammadanism, p. 344.